الإفناء، فهلّا يكفي أبد النار كما يستحقونها دون زيادة ولا نقصان: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾[1] ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا لَّا يَسْتَوُۥنَ﴾[2] ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنَ ٱلنَّارِ ﴿٢٧﴾ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾[3] فللعذاب موجبان: ١ - عدم التسوية بين المحسن والمسيء ولا سيما الانتقام من الظالم للمظلوم فإن تركه إلى تركه بدون ثواب ولا عقاب عذاب روحي للمظلوم والأصل العقلي في لزوم المعاد هو الانتقام من الظالمين. ٢ - لو لم يكن عذاب لازداد العصيان حيث الأكثرية من تاركي العصيان إنما يتركونه خوف العقاب ووعد العذاب دون واقعه كذب وإغراء! ثم الله ليس يعامل خلقه إلا بفضله دون عدله، لذلك يقرر جزاءَ الحسنة عشر أمثالها، ويدخل المطيعين جنة بفضله، فليشمل فضله أهل النار أن يعذبهم دون استحقاقهم، أم ولا أقل بعدله أن يجازيهم جزاءً وفاقاً وأما اللانهاية في العذاب فهي نائية عن العدل إلى أقبح الظلم ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾[4]! ومن ثم إذا يأمرنا بالعفو بدل الانتقام ﴿وَأَن تَعْفُوٓا۟ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ﴾[5] فهل يعامل هو عبيده الضعفاء بأكثر من الانتقام الذي لا مثيل له بين الظالمين من عباده؟!. كل ذلك يفرض أخيراً فناء النار بمن في النار ممن يصلونها. فلا نار إذاً ولا أهل نار! وخلاصة القول حول الخالدين في النار أن حد الخلود هو قضية ١ - عدل الله، ٢ - ورحمته التي وسعت كل شيء وقد سبقت رحمته غضبه ٣ - وجزاء

(١) سورة القلم، الآيتان: ٣٥، ٣٦.
(٢) سورة السجدة، الآية: ١٨.
(٣) سورة ص، الآيتان: ٢٧، ٢٨.
(٤) سورة فصلت، الآية: ٤٦.
(٥) سورة البقرة، الآية: ٢٣٧.

سيئة سيئة مثلها ولا مماثلة بين المحدود واللامحدود. ٤ - وأن الجزاء إنما هو بالأعمال وهي محدودة فالجزاء محدود ٥ - وأنهم لابثين فيها أحقاباً جزاءً وفاقاً، وأقل الحقب سنة وأكثره ثمانون. ٦ - ونفس الخلود تقيد في: ﴿ٱلنَّارُ مَثْوَىٰكُمْ خَٰلِدِينَ فِيهَآ إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾[١] ثم ولا دلالة ولا إشارة في القرآن أن أبد الخلود لا نهاية له إطلاقاً.

وأما بالنسبة للجنة فأبدها لا نهاية له فإنها قضية الرحمة الواسعة فلا تحد، وإنها عطاء غير مجدوز، وفيها ما تشتهيه الأنفس وتلذ الأعين.

وقد يقال أو ما يكفي العصاة أن لا ثواب لهم ولا عذاب، والجواب: إذاً انقطع الإنذار، وفي ترك جزاء الظالم ظلم على المظلومين فليكن عذاب.

والقول أن الآبدين في النار ذاتيتهم هي النار فهم إذاً لزام النار دون فكاك، مردود أولاً أن الذاتية النارية لا تحكم باللانهاية فيها وإنما تحكم بأنها تحرق ما دامت موجودة، ولكن العدل الإلهي يحكم بلزوم إفناء الذاتيات النارية بعدما ذاقت وبال أمرها، ولا تتصور اللانهاية في الذات المحدودة.

فخروج هذه الذات النارية عن النار أو خروج النار عنها - صدقنا أنه تنافي هذه الذاتية، وأما فناء الذات فهي لا تنافي هذه الذاتية وإنما تنافي الأبدية الذاتية وهي السرمدية.

والقول إن الكتاب نص في الخلود وارد، ولكن الخلود ليس نصاً فيما يعنونه من الخلود وهو العذاب اللانهائي، وادعاء كون ﴿وَمَا هُم بِخَٰرِجِينَ مِنَ ٱلنَّارِ﴾[٢] نصاً في هكذا خلود نص في عدم التفكر في الآية، وأما أن سنة

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٢٨.
(٢) سورة البقرة، الآية: ١٦٧.

أهل البيت عليهم السلام مستفيضة فيه فلا نرى إلا حديثاً أو حديثين تخالف الكتاب.

وأما أن الهئات التي رسخت في النفس حتى صارت صوراً أو كالصور الجديدة تعطي للشيء نوعية جديدة، هي مجردة في نفسها دائمية الوجود من غير زوال مثل المبتلى بالجنون فإنه مستمر له لا يزول؟ فلا مجرد في الكون إلّا الله، والذاتية المجردة - على صحتها - لا تستدعي اللانهائية.

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا
تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ
أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾
وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا
﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُواْ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ
لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا
تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓاْ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ
كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا
مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾ وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ ٱلْبَسْطِ
فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ
بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ
إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً
وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ
مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ
مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ ۚ
وَأَوْفُواْ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾ وَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُواْ
بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ
عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا

﴿تَمْشِ فِي ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾ ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوْحَىٰٓ إِلَيْكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلْحِكْمَةِ ۗ وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتُلْقَىٰ فِي جَهَنَّمَ مَلُومًا مَّدْحُورًا ﴿٣٩﴾﴾

﴿لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾﴾:

قاحل يخلف اللّوم والحسر.

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا۟ صَٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾﴾:

آيات تجمع بين الوالدين في أحكام أكثرها الإحسان بهما وكثير منها تجمع إليهما غيرهما، وهذه مما تخصهما بالاحترام بعد الله لا تحريماً للاحترام فقط وإنما الإحسان وأي إحسان[1] ولا تجد تفصيلاً في غيرها كما فيها، وقد تختص بالقضاء دون غيرها حكماً ومحكوماً له. محتوماً مقضياً لا حول منه ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ وقد نرى ردف الوالدين بالرب فيما يوصي أو يقضي للوالدين إلا قليلاً يردفان فيها بالله تدليلاً على أن حق الوالدية كحق الربوبية وبعدها لأنها استمرارية للتربية الإلهية، فكما الرب الله لا يعبد إلا إياه ولا يساوى أو يسامى به سواه، كذلك الرب الوالدان لا يساوى بهما سواهما في الإحسان، اللهم إلا رسل الله حيث

(١) راجع ج ٢٦ الفرقان ص ٢٩ - ٣٠٩ تفسير الآية ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا ۖ . . .﴾ [الأحقاف: ١٥] والذي قال لوالديه: ﴿أُفٍّ لَّكُمَآ . . .﴾ [الأحقاف: ١٧] تجد تفصيل البحث في حقوقهما هناك.

يحملون من التربية الإلهية ما لا يحمله الوالدان اللهم إلا في الولادة الجسمية وتربيتها وقد يشمل «الوالدين» كلتا الولادتين الروحية والبدنية فهما على درجات: الوالد الروحي الأول وهو المجرى الأول للولادة الروحية: أهل بيت الرسالة المحمدية، ثم من يحذو حذوهم في التربية الإلهية، ثم الأدنى الوالد الجسمي الذي لا يعني التربية الروحية، ثم بينهما أوساط، فكلما ارتفعت درجة الوالدية ارتفعت ميزانية الإحسان، ثم الإحسان بالوالد الروحي يختلف عما للوالد الجسمي، ويجمعها المواجهة بالحسنى في عِشرة روحية اماهيه وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «أنا وعلي أبوا هذه الأمة» وعن الإمام علي عليه السلام «ولدني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم».

هذا القضاء حكم تشريعي صارم وفصل قاطع حاكم تحمل سلبيات وإيجابيات، ترى أنهما تختصان بـ «ربك» أم و«الوالدين»؟ أم تشمل كافة الإيجابيات والسلبيات التالية الاثني عشر: أمرين ونواهي عشرة قد تحتملها الآية، أو أن الشمول أقرب فإن ﴿ذَٰلِكَ مِمَّآ أَوۡحَىٰٓ إِلَيۡكَ رَبُّكَ مِنَ ٱلۡحِكۡمَةِۗ...﴾ أو أن الأوجه هنا اختصاصها بالرب والوالدين[1] ثم الشمول، وجوه تحتملها الآية تلو بعض.

والحكمة هي القضاء بما يربط بين المنفصلات.

(١) قد توحي: ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٢٣] دون وأن بالوالدين أم ماذا - باختصاص هذه القضاء بتوحيد الله، ثم يتلوه ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ [الإسراء: ٢٣] ثم سائر الأحكام، وقد تؤيده الآية السالفة لها ﴿لَّا تَجۡعَلۡ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ...﴾ [الإسرَاء: ٢٢] أو أن القضاء له مراحل ثلاث: لله - للوالدين - ولسائر الأوامر والنواهي التالية، أو يقال إن القضاء هنا قضى به لا فيه أو عليه أوله أو قضاه، فإن قضى به حكم تشريعي، فلا تشمل إذاً ألا ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ...﴾ أي «بأن لا تعبدوا»... ثم ﴿وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًاۚ﴾ أي قضى «بإحسان الوالدين» بأن أحسنوا بالوالدين إحساناً ثم لا موقع لسائر الأوامر والنواهي ولا سيما أن الأمر تقدير للباء، فإن ﴿وَءَاتِ...﴾ [الإسرَاء: ٢٦] لا تتحمل الباء، اللهم إلا «بأن آت ذا القربى حقه» كما في «بأن أحسنوا...».

فإن القضاء هذه تبدأ بـ ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ وتنتهي بمثلها ﴿وَلَا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾ حيث تجمعهما ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ فسلبيات هذه القضاء بادئة من ﴿لَآ إِلَٰهَ﴾ وإيجابياتها من ﴿إِلَّا ٱللَّهَ﴾ كما وأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ تحتل المحور الأساسي والمركز الرئيسي في كافة الأقضية التكوينية والتشريعية سواء، فقصارى شرعة الإسلام وكل شرعة إلهية هي ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾!.

﴿وَقَضَىٰ﴾[1] أمر وحكم[2] في صيغة القضاء تخلع على الأمر معنى التوكيد أنه بَتٌّ جزم لا ينسخ، تمام لا ينقطع. إلى جانب الحصر المستفاد من الاستثناء ﴿إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ فصيغة التعبير تصوغ توحيداً سائغاً لكيان الربوبية الوحيدة، وهي أولى الأقضية وأولاهما كما وهي عقباها وأخراها.

ولماذا ﴿وَقَضَىٰ﴾ هنا ﴿رَبُّكَ﴾ لا: رب العالمين ولا: الله؟ لأنه يعني في هذه الأقضية الجوانب التربوية، لتكن منوطة مربوطة بجانب الربوبية، فربوبيته هي الحاكمة ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ - ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أم ماذا؟

---

(١) ومن الأقاويل هنا في قضى ما رواه ميمون بن مهران عن ابن عباس أنه قال في هذه الآية: كان الأصل «ووصى ربك» فالتصقت إحدى الواوين بالصادق فقرئ ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ [الإسرَاء: ٢٣] ثم قال: ولو كان على القضاء ما عصى الله أحد قط لأن خلاف قضاء الله ممتنع! أخرجه في الدر المنثور ٣: ١٧٠ عن ابن عباس بعدة طرق وعن ابن مسعود والضحاك بن مزاحم وأخرج ضده عنه مجاهد وقد جاء القضاء بمعنى الحكم الشرعي الثابت في آيات أخرى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ﴾ [الأحزَاب: ٣٦] ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُواْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيمًا﴾ [النِّساء: ٦٥].
أقول: وهذه من الأقاويل الحمقاء التي تفتح باب التحريف في القرآن الحكيم، ولم يدر المختلق المسكين أن القضاء لا تختص بالتكوين فقد تكون تشريعياً كما هنا، ولو أن القاف تشتبه بالواو لكان مثله وأدنى منه كثيراً في القرآن فلا اعتماد إذاً في كتب القرآن.

(٢) نور الثقلين ٣: ١٤٨ عن التوحيد بإسناده إلى ابن عباس عن أمير المؤمنين عليه السلام حديث طويل وفيه فقال الشيخ: يا أمير المؤمنين! فما القضاء والقدر اللذان ساقانا وما هبطنا وادياً ولا علونا تلعة إلا بهما؟ فقال عليه السلام: الأمر من الله والحكم ثم تلا هذه الآية ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ...﴾ [الإسرَاء: ٢٣] أقول: يعني هنا خصوص الأمر التشريعي أو ما يشمله ثم يمثل بهذه الآية التي تحمل هذا الأمر.

ومن ثم ﴿رَبُّكَ﴾ توحي بهذه التربية العالية التي تفوق العالمين أجمعين، فعلى ضوء التربية المحمدية: ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ﴾ بهذه الأقضية ولكن تربو ربوةً عالية على كافة التربيات ولأنها قضاء في الأمة المرحومة في شرعة تجمع الشرائع وزيادة: ﴿أَلَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ نهي كأول مورد للقضاء أو تفسير لها[١].

وقضاء التوحيد هي القاعدة والأساس، تتبناها سائر التكاليف العقلية وسواها، فردية وسواها، فلها في نفس الموحد ركيزة التوحيد، توحد البواعث والأهداف في كافة الجنبات الحيوية أن يصبح ككل توحيداً في عبادة الله. وكذلك يتمثل ككل: ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا﴾ أن أحسنوا بالوالدين إحساناً[٢] في حال ومال. في حل وترحال، في كل حال على أية حال، لا فقط أن الإساءة إليهما محرمة، بل وترك الإحسان بهما محرم، فالإحسان يشمل كل ظاهرة في العشرة حتى وفي المشي والقعود والتسمية وعلى حد المروي عن الرسول ﷺ[٣].

يفرض هنا وهناك إحسان الأولاد بالوالدين ولا يفرض العكس، لأن البنوة والناشئة المتغافلة الجديدة هي المحتاجة إلى استجاشة وجدان البر والرحمة، حيث الوالدان مندفعان بالفطرة إلى الإحسان بالأولاد، لا ينسونهم أو يتناسون حتى وإذا نسوا أنفسهم. ولكنما الناشئة فسرعان ما ينسون أو يتناسون عطف الوالدين، ملتهين بشؤونهم أنفسهم في تبني الحياة

(١) فعلى الأول تقدر الباء «بأن لا تعبدوا» وأن ناصبة ولا تعبدوا نفي بمعنى الأمر وعلى الثاني دون تقدير وأن مفسرة ولا تعبدوا نهي.

(٢) وأن هنا مفسرة دون تقدير للباء إذ لا تدخل الناصبة على غير المضارع اللهم إلّا على تقدير أن تحنوا.

(٣) الدر المنثور ٣: ١٧١ - أخرج ابن مردويه عن عائشة قالت أتى رجل رسول الله ﷺ ومعه شيخ فقال: من هذا معك؟ قال أبي قال: لا تمشين أمامه ولا تقعد قبله ولا تدعه باسمه ولا تستسبَّ له.

الجديدة، لا سيما إذا شاخ الوالدان وساءت أخلاقهما وصعبت حياتهما وثقلت عليهم حِمل أعبائهما، لذلك فالجيل الناشئ هو المحتاج لقضاء الله ووصيته، استجاشة لدفائن وجدانهم ليذكروا واجبهم وجاه الجيل الذي أنفق رحيقه كله في انتشائهم حتى أدركه الجفاف.

ولكن هل الوالدان كلهم يعملون واجبات الوالدية التربوية وجاه الأولاد لكي لا يحتاجا إلى استجاشة كما الأولاد؟

قد يقال إن المقام هنالك مقام الإحسان لا واجب التربية، وإن كان الإحسان يشمل الجانب التربوي إذا كان الولد أقوى تربية وأرقى من الوالدين فالرعاية التربوية واجبة على كل راع وكلكم مسؤول عن رعيته الوالدان أو الأولاد أم من ذا، والأقربون أولى ثم من دونهم وكما يستطيع في الشعاع التربوي ولا تعني تلك القضاء وتلكم الوصيات بحق الوالدين إلا الحنان والإحسان في العشرة، مهما شملت أحياناً التربية.

ولكي يراعي الوالدان أيضاً أولادهم فلا يضاروهم فـ ﴿لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦ...﴾[1] إن في رضاعة أم ماذا، ومن المضارة التقصير في المحبة والتربية، فالوالدان - إذاً - يؤمران بترك المضارة بأولادهما، ولكنهما يفوقان الأولاد في واجب الإحسان حناناً واحتراماً، فواجب الإحسان أمر، وواجب التربية أمر آخر قد يختلطان وقد يفترقان.

يقضي الله تعالى هنا بالإحسان إليهما، ومن أفضل الإحسان وأوجبه هديهما إلى الحق إن خالفاه فسقاً أم ضلالاً أم ماذا، فالدعوة إلى الخير والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجبة عامة، ثم وقاية الأهلين خاصة.

ثم هي بالنسبة للوالدين أخص، إذاً فهي واجبة بالنسبة لهما في أبعاد ثلاثة.

(١) سورة البقرة، الآية: ٢٣٣.

ومن ثم يركز قضاء الإحسان بهما على أضيق حالاتهما، حيث يضاف سوء الخلق إلى أعباء الكبر ونظراتهما الطائلة من الناشئة، أن من واجب الأولاد تحمُّل مثلث الأعباء أم ماذا؟ دون تلفُّت عنها أو تفلُّت منها ولا تعنت حتى في أدنى لفظه من قول ﴿أُفٍّ﴾:

﴿... إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾﴾:

... كما بلغت عندهما من الطفولة إلى الحلم، وإلى الكهولة أم ماذا! ولم تر منهما إلا الإحسان، إما يبلغن... [1] ترى وما هي الملاءمة بين «إن» الشرطية ونون التأكيد القاطعة؟ علها التأكيد على تحصيل هذا الشرط أن يجدّ الأولاد لكي تستجد عيشتهما عندهم باستمرار ما هما حيان لا أن ينفصلوا عنهما أو يفصلوهما عنهم إذا كبر أحدهما أو كلاهما، بل ويستمروا في العيشة الراضية معهما، ويهتموا رقابة على صحتهما أن يكبرا عندهم، تقديماً لكافة الإمكانيات في كافة الجهات للحفاظ على سلامتهما وعلى كونهما عندهم.

أنت كنت عندهما لحد الآن. فليكونا عندك من الآن، فـ ﴿عِندَكَ﴾ توحي بحالة الالتجاء فالإلجاء، التجاء بالتجاء وإلجاء بإلجاء وهو بعد لن تكون جزاءً وفاقاً حيث ألجاك في طفولتك ولا ملجأ لك إلا والداك، وأنت تلجئهما في شبابك وهما في كهولة أو زاد «فإنهما كانا يفعلان ذلك وهما يحبان بقاءك وأنت تفعل ذلك وأنت تريد موتهما» [2].

---

(١) أما هي أن الشرطية وما المؤكدة حيث تسمح لدخول نون التأكيد. فـ «إن» ضرورة لبيان ظرف الشك إذ لا يعلم أنهما يكبران عندك أم لا، ثم «ما» المؤكدة وتقدم «عند» ونون التأكيد الثقيلة، هذه كلها تأكيدات تفرض على الأولاد أن يقدموا كل إمكانياتهم لبقائهما عندهم وأن يكبرا عندهم.

(٢) الكشاف للزمخشري ٢: ٥١٤ روى سعيد بن المسيب أن البار لا يموت ميتة سوء وقال رجل=